وسائلنا فى إنقاذ الطفولة

محاضرة ألقيت فى معهد دراسات الطفولة

لحضرة صاحب العزة الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

إنى أعتقد أن العبرة بالتنفيـــذ لا بالكلام النظرى ، فطالما سمعنا النصائح الجميلة والخطب الرنانة ولكن لم يكن لها من نصيب غير التصفيق يسمعه المحاضر والشكر يقال للناصح . فإذ أخذنا مشكلة اجتماعية كمشكلة الطفولة مثلا ما استطعنا حصر المقالات والأبحاث والمجلدات التى تناولتها . أذكر لرابطة الإصلاح الاجتماعى الجهود المتواصلة التى بذلتها فى سبيل النهوض بالطفولة . فالمؤتمرات التى عقدتها كانت كلها تهتم بالطفولة ، حتى ن منها مؤتمر عقد للطفل . ولكن هل أنتجت هذه الأبحاث شيئا عمليا ؟ لا أنكر أن هناك بعض نتائج عملية كمنشئات أقيمت لإصلاح الطفولة أو إسعادها ، ولعل أهمها ما أنشأته الرابطة كدار كفالة الطفل أو دار كفالة الفتاة ولكن ليس فى هذه النتائج القليلة ما يشفى العلة ، فهى إن أثمرت فإن ثمرتها لا تتعدى بضع عشرات أو مئات ، أما الآلاف بل الملايين فلن تصل اليهم يد الإصلاح الصغيرة . على أن صغر هذه اليد لا يعنى انعدام أثرها بل هى يد كريمة ، نذكر لها أنها البادئة بشق الطريق والبادئة بإنارته . ومهما كان الطريق طويلا ومظلما فإن للعمل الأول فضل الابتداء فى إزالة الصعوبات وللشمعة الأولى فضل الهداية . فكم ساعد نجم ضئيل على ارتياد الفيافى والقفار والوصول إلى شاطئ السلامة . وإنى يحضرنى فى هذا المقام ما تحتويه أكثر أقاصيص الأطفال من ذكر ضوء بعيد أو نجم لامع ينير الطريق ويبدد غياهب الظلام فيسير الطفل أو بطل القصة على هداه حتى يتجاوز الخطر ويصل سالما إلى الهدف المنشود . وما دام هناك ضوء فالأمل قائم والسائر على هداه واصل لا محالة . فالعمل الجليل الذى تقوم به رابطة الإصلاح الاجتماعى هو هـذا النور الذى نهتدى به وإن بدا صغيرا ، وهو ذلك النجم اللامع الذى يرشد الضال إلى سواء السبيل . لذلك لا أشعر باليأس مادمت أرى هذا القبس ولا يعترينى الملل مادمت أشعر أن فى السويداء رجالا وأن فى النفوس رغبة صادقة للإصلاح . وهنا أختلف مع سعادة العشماوى بك فهو برغم جهوده الجبارة متشائم ، أما أنا فإنى متفائل خيرا ويزيد تفاؤلى كلما رأيت هذه الوجوه الصبوحة الفتية التى تجتمع فى مثل هذه الدار إذ تستزيد من العلم فى شؤون الطفولة وهى من أهم شؤون الإصلاح الاجتماعى فى بلادنا إن لم تكن أهمها جميعا .

أجل لا يوجد فى نظرى من مسائل المجتمع ومشكلاته ما يسبق مسائل الطفولة ومشكلاتها فإذا ذكرت الطفولة ذكر المستقبل والجيل الجديد بل الأجيال المتتابعة و إذا خبثت الطفولة خبث الشباب وخبثت الرجولة فى الأعقاب وأعقاب الأعقاب . لذلك قيل إن الطفل أبو الرجل ، واهتم القوم فى البلاد الغربية قاطبة بشؤون الاطفال حتى فكروا قبل الحرب فى إقامة حزب دولى ينتظم البلاد كلها يسمى حزب الطفل يكون له صوت مدو فى كل بلد ، فى صحفها وكتبها ومنابرها ومجالسها النيابية وحكوماتها ، وقد أتيح لى شرف الاشتراك فى تكوين هذا الحزب وكان معهد نشأته فى هولندا وهى بلد محايد كان أغلب الظن أنه سيبقى بعيدا عن سعير الحروب ولظاها . واحتضنت هذا الحزب ملكة هولندا باعتبارها الملكة التى تجمع الى عظمة الملك عظمة أخرى لا تقل عنها قدرا وهى عظمة الأمومة . ولكن الحرب قد عصفت بهولندا فباعدت بين ممثلى هذا الحزب فى البلاد المختلفة . و يقينى أنه إذا ما وضعت الحرب أوزارها فسيكون للطفولة الشأن الأكبر . فهى أداة تعمير العالم بعد ما جاءت به الحرب من خراب ودمار . فمن الذى سيحل محل الرجال والشباب الذين راحوا ضحية هذه الحرب الضروس غير الأطفال . سيكون صراخ الطفل بعد الحرب هو بشير الإصلاح ودعوة العالم إلى طريق العمل الهادئ المنتج فى ظل الوئام والسلام . وسنرى عندئذ فى كل بلد بل فى كل مجتمع حزبا قويا ينادى بحماية الطفولة ورعايتها حتى تخرج لنا سواعد قوية وعقولا صالحة تقود سفينة العالم بعد هذه العاصفة الهوجاء .

هذا هو الطفل . فكيف نصل إلى الإفادة منه ؟ كيف نخرج من المهد عاملا من عوامل الإنتاج المجدى والإسعاد ؟ :

ربما أخرج مهد فرقدا يخرج الناس من الجهل البهيم

ما الذى يجب أن نقوم به نحو هذا المهد حتى لا نحرم من الفرقد الذى قد يخرج منه أعتقد أن أقوم سبيل لذلك هو إنقاذ الطفل من الويلات التى يتعرض لها فى ذلك الدور الدقيق وهو لا يزال غضا رقيقا يتأثر بأقل مؤثر . فعملية إنقاذ الطفل من الأخطار التى يتعرض لها ، هى أولى الوسائل التى تؤدى إلى بقاء الطفل حيا قابلا للنمو والإصلاح . فعوامل الفناء التى تحيط به وتعمل على هدمه قوية جدا وهو ضعيف لا يستطيع لها دفعا ولا ردا . فإن لم يجد بجانبه من ينقذه من براثن هذه العوامل الفتاكة ذهب ضحيتها وفقدت الأمة عاملا لو حفظ فى فترة الطفولة الخطرة كان عمادا من الأعمدة التى يقام عليها بناء قوى متين .

وما دام إنقاذ الطفل من الأخطار المحيطة به هو الغرض الأسمى الذى يجب أن نضعه نصب أعيننا فلنبحث إذن فى وسائله . ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الوسائل يجب أن نشير إلى من يقوم بها . فلا صناعة من غير صانع ولا إنقاذ من غير منقذ . فعلى من يقع عبء

إنقاذ الطفولة ؟ لاشك أن المسئولين عن ذلك أولا هم الآباء والأمهات ثم المعلمون . فاذا قام الآباء والأمهات بواجبهم فى حماية الطفل ووقايته من العاديات عند ما يكون فى كنفهم وقامت المدرسة بواجبها ومعلموها بواجب وقايته أثناء الدراسة انقضت بسلام مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب (وهو جزء من الطفولة أيضا) وتدرج الطفل فيها حتى يدرك الرجولة وهو صحيح البنية والعقل والخلق . فالقائمون بالإشراف على الطفل فى أدواره الأولى مطالبون برعايته رعاية تحوطه بسياج منيع يقيه الشرور والويلات وينقذه فى الوقت المناسب من الوهدات المختلفة التى قد تتعثر فيها قدمه الصغيرة . فاذا أدرك هؤلاء خطورة مهمتهم وفهموا دقائقها أمكنهم أن يأخذوا بيد الطفل ويسلموه للمجتمع سليما قويا صالحا للعمل . وإنه ليكفى فى نظرى أن يكون القائمون على شؤون الأطفال من آباء وأمهات ومعلمين على درجة من الثقافة والإدراك تؤهلهم للقيام بهذا الواجب الجليل ليستنبطوا الطرق الناجعة للرعاية والإنقاذ التى تلائم حالة كل طفل وبعبارة أخرى لا يحتاج الأمر إلى بيان وسائل الإنقاذ وتعدادها اذا كانت رعاية الطفل موكولة الى يد خبيرة . فلنعن إذن بإرشاد الآباء والأمهات والمربين والمربيات حتى يتبينوا مسئوليتهم نحو الأطفال ونتركهم وشأنهم بعد ذلك يختارون خير الوسائل التى تؤدى الى الغرض المنشود . أما بيان الوسائل وإيضاحها وشرح تفاصيلها فلا يغنى فتيلا مادام المباشر لهذه الوسائل ليس أهلا لمهمته . فخير الوسائل إذن لإنقاذ الأطفال هو أن نكلهم إلى من يحسن رعايتهم وإنقاذهم . لهذا سأقصر كلامى فى هذا الحديث على المقومات التى تجعل من الأشخاص الذين وضعتهم الطبيعة أو الظروف فى مركز رعاية الأطفال خير حماة لهم . أما شرح وسائل الحماية والإنقاذ فأمر تفصيلى يتناول طبعا أبحاث الإخصائيين فى كل طائفة من هذه الوسائل، وحديثى عن المقومات التى يجب توافرها فى الآباء والمربين ليس موجها لطبقة دون أخرى فالأغنياء أو الفقراء أو متوسطو الحال كلهم فى حاجة لهذه المقومات ليقوموا بتلك المهمة الكبرى، مهمة رعاية الطفولة وإنقاذها على أكمل وجه، وقد يكون الطفل فى بيت شامخ يحيط به الترف والنعيم ولكن لا يجد ما يحميه من أخطار الطفولة .

وأول المقومات التى تساعد على حسن رعاية الأطفال هو الحب، فلا يمكن تولى شؤون الطفولة إلا اذا كان الحب رائد القائمين بهذه الشؤون، فهو أول شرط لقيام أبوة صحيحة وحبذا لو أنشئت معاهد أو دراسات لتعليم الآباء وغيرهم من القائمين بتربية الأطفال المبادئ الصحيحة التى تؤهلهم للإشراف على هذه الأرواح الطاهرة الصغيرة . وكل هذه المبادئ تقوم على الحب . لقد أعجبتنى كلمة ألقاها المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة بمناسبة عيد رأس السنة، إذ قال "إن كل مايوصى به أهل وطنه هو الحب، ففيه حل أكبر المشاكل وأعقدها . فاذا سادت المحبة العلاقات بين الآباء والأبناء وبين المعلمين وتلاميذهم

فهم الآباء والمعلمون أولادهم وتلاميذهم فهما حقيقيا وساعدوا على توجيههم التوجيه الصحيح . وتتجلى ضرورة توافر الحب فى الأم بصفة خاصة . فالأمومة هى ذلك الينبوع الفياض لأسمى العواطف ،وهى المثل الأعلى للطفل، إذ يجد فيها رمزا لكل مافى الحياة.وقد قرأت فى كتاب فرنسى عنوانه : "الأم والطفل" لشارل لويس فيليب أنه يذكر شعوره نحو أمه وهو طفل فكان يتمثلها قوة من قوى الله جميلة وصافية كصافى النمير وممثلة تمثيلا كاملا لكل مافى الوجود ، فهل يتحقق كل ذلك إذا لم يكن أساسه العطف والمحبة ؟.

وتبدأ آثار المحبة من وقت الحمل . فالأم المحبة العطوف تعنى بجنينها وترعى صحتها حرصا على حياة الجنين . وهذا الحب ينعكس من الأم على المحيطين بها . فالأب بدوره يرعى زوجه الحامل ، وكلما زاد شعوره بالمحبة والعطف زادت عنايته . والمجتمع كذلك كلما قويت فيه الروابط الروحية زادت عنايته بالأم قبل الوضع وبعده . ولهذا نجد الأمم التى تسمو فيها العواطف الروحية أكثر الأمم رعاية للأمومة بعكس المجتمعات الهمجية فإنها كانت لاتعطف على الأمومة حتى إنه قيل إن من مقاييس المدنية فى أية أمة من الأمم معرفة مدى عناية أهلها بالأمومة أثناء الحمل ووقت الوضع . فيقص علينا التاريخ مثلا أن القبائل المتوحشة كانت تنظر للأم الحامل شذرا وبلا عناية ، وإذا لم يتم الوضع بسهولة لجأ القوم نطرق قاسية مؤلمة للتعجيل به . ويعتبر المؤرخون من علامات عظمة بعض الشعوب القديمة كالمصريين والرومانيين واليونانين القدماء أنهم كانوا يعنون عناية فائقة بالأم الحامل وعندما تدهورت الدولة الرومانية عادت وجهة النظر المتوحشة واستمرت فى أوربا أكثر من ألف سنة إلى أن جاء وقت النهضة ، كذلك كان الإسلام بمبادئه السامية عاملا قويا على تهذيب النفوس والعناية بالأمومة والطفولة وإزالة ما سارت عليه الجاهلية من عادات قاسية كحرم وأد البنات . قال تعالى :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۞

ووضع نظاما للعناية بالأمهات والأطفال حتى الرضاعة والفطام قال تعالى :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۞

وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۞

المحبة إذن هى الصفة الأولى التى يجب أن يتحلى بها كل من يتصدى لأمور الطفولة وهى كفيلة بإرشاده إلى الوسائل الناجعة لإنقاذ من يرعاهم من الأطفال . أما المظاهر الخارجية لهذه المحبة سواء فى ضروب العناية الصحية أو الطبية أو الاجتماعية التى تضمن سلامة الأمهات والأطفال أو حسن تغذيتهم أو نموهم فهذه مسائل تفصيلية تختلف باختلاف الزمان والمكان والعوامل الأخرى من اقتصادية أو جوية أو إقليمية . فالعناية بالأطفال وقت الحرب قد تختلف عنها وقت السلم ، والعناية بالأطفال فى البلاد الباردة قد تتبع فيها قواعد صحية تتلاءم مع الجو البارد وغير ذلك . ومن أمثلة ذلك ما اتبع فى انجلترا أخيرا بسبب الحرب والغارات من إنشاء مستعمرات فى اهواء الطلق للأطفال تبلغ مساحة الواحدة منها نحو ثلاثة أفدنة كلها بساتين وأراض مزروعة يعنى فيها بمئات من الأطفال تتراوح سنهم بين بضعة شهور وسبع سنوات ويعوضون فيها من الهواء الطلق النقى ما أصابهم من صدمات بسبب الغارات ومن الغذاء الصحى المكون من الفواكه والخضراوات ما فقدوه من تغذية لحرمانهم من آبائهم وأمهاتهم . وقد راق لى وصف قدمت به إحدى الصحف الانجليزية بيانها عن هذه المستعمرات بتسميتها "معركة الأطفال" .

ومن المقومات التى تؤهل للعناية بالأطفال أن يكون للقائمين على شؤونهم مقدرة على تفهم الأطفال وإدراك حاجاتهم والعمل على إسعادهم بروح غنية ونفس مطمئنة وخلق قويم وهذا لا يتم إلا بدرس حالة الطفل سواء من الوجهة الصحية أو النفسية . فمن الوجهة الصحية تدرس مواضع ضعفه وأمراضه ويعطى لها العلاج الصحيح . ومن الوجهة النفسانية تدرس عقليته وروحه . يجب أن يتولى المشرف عليه أمر قلبه ونفسه ويجتهد فى تكييفهما برفق حتى يصل بالطفل تدريجيا إلى المستوى الصالح . ولا تتوافر الشخصية اللازمة لتكييف الطفل تكييفا صحيحا إلا إذا فهم الخلق الطبيعى للطفولة على حقيقته . فأكثر الآباء والأمهات لا يدركون درجة إدراك الطفل فى كل مرحلة من مراحل الطفولة مع أنه يجب لنشأة الطفل نشأة سليمة أن نكون على علم بالمستوى العادى أو الطبيعى لنفسيته كما نعلم المستوى

الطبيعى لصحته أو لذكائه . وبهذا العلم نستطيع أن نقيه الزلل وأن ننقذه إذا طرأ ما يخل بتوازنه . وحسن فهم الطفل يجب أن ينظر اليه كشخصية نامية منتظرة فى ضوء سنه ونموه فنراعى أدوار نموه وتطوره الجثمانى والعقلى والعاطفى . وليس هـذا بالأمر اليسير علينا نحن الكبار ، بل هنالك صعوبات تحول دون حسن إدراكنا للأطفال أولها أننا كبار فى تفكيرنا وعواطفنا ومستوى سلوكنا ودرجة التأثير عليها ، وكل هذه الأمور تختلف فى الكبار عنها فى الصغار . فالتصرف الطبيعى للطفل ليس طبيعيا لكبير السن .

والصعوبة الثانيـة أننا ننسى طفولتنا ، فالعواطف المختلفة التى خالجت نفوسنا أثناء الطفولة كالمحبة والكراهة والخوف والغيرة لم تعـد باقية فى الذاكرة ، واذا بقى شىء منها فإنه ناقص نقصا كبيرا يجعلنا بعيدين كل البعد عن مستوى الطفل ، ومن هنا تنشأ صعوبة ثالثة ، وهى أن الطفل هو نوع من البشر له طابعه الخاص ويجب أن نفهمه بهذا الطابع لا بطابع عقليتنا الكبيرة المتقـدمة ، كذلك يجب لمن يقوم على شـؤون الأطفال أن يكون له من الشخصية ما يساعده على تعويد الأطفال عادات حسنة ، وهذا لا يتأتى الا بالاطمئنان والثقة ، فالاطمئنان هو أن يشعر الطفل من وقت ولادته بأن والديه يقبلانه كما هو ويرضيان به كل الرضاء باعتباره فردا من الأسرة ، وكلما كبر الطفل احتاج لزيادة درجة اطمئنانه بأن يلقى فى روعه أنه مهما فعل يستطيع أن يعود لداره ويقص ما وقع منه دون خوف الانتقاد أو العقاب وأنه يجب أن يثق دائما بأن والديه سيقدمان له كل مساعدة ضرورية ورشيدة لتنقذه من أية صعوبة يقع فيها ، لأنه من المسلم به أن الطفل كلما تقدم فى السن وتعلم وجب أن يكون مسئولا عن نفسه وأخطائه . والطفـل الذى لا يرتكب خطأ أو يقع فى صعوبة هو طفل خائف مضغوط عليه لا يستطيع فى مستقبل أيامه أن يهيىء نفسه للحياة . فالاطمئنان يجب أن يقع أولا فى نفس الطفل من جهة والديه وكلما كبر اتسعت دائرة الاطمئنان إذ يجب أن يشعر بالاطمئنان إلى المدرسة وإلى الأساتذة وإلى الأمة ، وفى النهاية يجب أن يكون مطمئنا من ناحيـة نفسه أى يجب أن يشعر أنه يستطيع أن يعتمـد على نفسه وأن يطمئن لكل ما يقوم به من عمل ، وبذلك يقابل صعوبات الحياة دون أن يشعر باختلال فى التوازن أو بعدم ملاءمة بين نفسه وبين الوسط الذى يعيش فيه ، وكل هذا لا يتحقق إلا إذا نشأت فى نفس الطفـل الطمأنينة من الصغر . كذلك يجب أن تنشأ مع الطفل من صغره الثقـة أولا فى والديه ثم فى أقرانه ومعلميه ، والمجتمع الذى يعيش فيه والبيئة المحيطة به بصفة عامة وكلما نما وجب تمكين الثقـة من نفسه لأنه اذا شعر بأنه غير صالح لشىء وغير واثق من نفسه فإنه لا يتقـدم خطوة إلى الأمام بل قـد يصبح عالة على المجتمع ويقع فى حالة من التدهور لا يمكن إنقاذه منها ، فالآباء والأمهات يجب أن يقنعوا أطفالهم بحسن اعتقادهم فيهم وتمام ثقتهم بأنهـم أفضل الأولاد . وكثيرا ما يلجأ بعض الآباء إلى نقـد أولادهم

نقدا مستمرا ولومهم كلما فعلوا شيئا لا يتفق مع القواعد التى يجرى عليها الكبار ومع طريقة تفكيرهم بل يؤلمونهم بالقول ذاكرين أنهم يخجلون من أعمالهم ولكن هذه الخطة ليست المثلى فإنها تفقد الأطفال الثقة . قد يقال إن الاستمرار فى مدح الأطفال قد يدخل الغرور فى نفوسهم ويخرجهم من متناول الإشراف ولكن ثبت من التجربة أن هذا الرأى غير صحيح فكلما أثنيت على الطفل بذل جهوده ليحصل على رضائك وكلما شعر الطفل بالثقة ثبتت أقدامه فى طريق النجاح . أما اذا ضعفت ثقته فإن الأمر يختلط عليه و يملكه التردد والخوف.

نخرج من كل ذلك بأن أقوم سبيل لإنقاذ الأطفال من الويلات التى قد تعصف بهم هو أن يحسن القائمون عليهم أداء رسالتهم بأن يولوهم ما يستحقونه من محبة وعطف وأن يفهموهم على حقيقتهم ، وأن يكون لهم من الشخصية ما يساعد الأطفال على النمو والتطور فى اطمئنان وثقة . فالأطفال يخرجون كما يريد آباؤهم والأبوان يعطيان طفلهما جسمه وعقله و يتوقف نمو هذا الجسم والعقل على وسائل التربية التى يتبعها الوالدان فقد منح الله الأطفال قوة للنمو والتقدم وفى يد الوالدين تمكين هذه القوة من أن تؤتى ثمارها . فمن الوجهة الصحية يتوقف النمو الجثمانى على ما يقدمه الوالدان من غذاء صحيح وعناية جسمية كافية . فإذا قصرا فى التغذية أصيب الطفل بأمراض نقص التغذية ، لهذا كان للطفل منذ ولادته حق طبيعى فى الحصول على غذاء مناسب حتى إن بعض البلاد كالدانمارك نصت فى دستورها على أنه لا يجوز لبنيها أن يموتوا جوعا . والغرض من ذلك أن الجوع أو التجويع محرم فى النظام الأساسى للدولة . و إذا قصر الوالدان فى العناية الجثمانية بالطفل أصيب بالهزال وضعفت مقاومته للأمراض ، كذلك يجب ألا يحرم الطفل من العطف والمحبة حتى تنضج عاطفته نضوجا تاما ولا ينشأ شاذا ملتويا فى عواطفه . أما النمو العقلى فيتم بإيجاد روح الثقة والاطمئنان حتى ينشأ الطفل معتمدا على نفسه متحملا مسئولية أعماله. ومما يساعد على ذلك أنه يجب أن ينتظر من الطفل أداء ما يتفق مع سنه ولا يطلب منه أن يعمل كالكبار فإن عقليته مختلفة عن عقليتهم .

فليتعلم الآباء والأمهات هذه المبادئ حتى يمكن أن يعهد اليهم بحمل هذه الرسالة السامية رسالة الأبوة أو الأمومة ، ومتى حسن الآباء والأمهات كان طريق الحياة أمام الأطفال ممهدا وطريق نجاحهم معبدا وقل تعرضهم لأخطار الحياة وويلاتها ووصلوا إلى الرجولة بروح غنية وعقل متزن سليم .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الطفل ما دام صغيرا فإن هناك متسعا من الوقت لإصلاحه ، فان السنة الأولى من حياة الطفل هى أهم فترة يحصل فيها على التكييف الذى يحتاج اليه فى حياته وكل سنة تمر بعد ذلك تقل فى أهميتها عن السنة التى قبلها . لهذا يجب ان يبذل الجهد من

اول الأمر لكى يوائم الطفل تدريجيا بين دوافعه الغريزية وحاجات المجتمع على ألا يكره على ذلك بالقوة فلا يجبر على النمو والإدراك قبل الأوان ، فكل ما ينتظر من الطفل يتوقف على مقدرته الشخصية والوالدان الناجحان هما اللذان يسمحان لطفلهما بأن ينمو نموا عاديا حسب طبيعته ويعترفان بحاجاته العاطفية أو الروحية ، فللعواطف حاجات لا تقل فى أهميتها عن الحاجات الجثمانية ، ولتربية الروح أكبر الأثر فى تكوين الخلق، بل إن ما نشاهده فى عدد من الكبار من اضطراب نفسانى أو تردد أو خوف يرجع دائما الى حالة الصغر ، فمن الأقوال الصحيحة أن الاضطراب العصبي لا ينشأ فى الكبر بل هو يبدأ دائما بالخوف والنفور أثناء الطفولة، فإذا أريد إنقاذ الناس من الاضطرابات العصبية وهى أساس ما يقعون فيه من فوضى وما يرتكبونه من حماقات ، فيجب تقصى أسباب مخاوف الأطفال ووضع وسائل لوقايتهم منها ، إذ لا يخفى أن الخوف من أولى العواطف التى تخالج نفوس الأطفال ويرجع سببه الى أى عمل مزعج أو صوت مستنكر أو شعور يعكر اطمئنان الطفل واذا تكرر ما يخيفه يستمر شعوره بالخوف فى كل الظروف خصوصا الجديد منها على نفسه وبتقدم السن بالطفل واستطاعته الكلام يمكن أن يفضى إلينا بمصادر مخاوفه وهى ترجع فى أكثر الأحوال الى خشية الكبار وفى طليعتهم والداه وبوجه خاص والده، ثم قد نجد أيضا من أحلام الطفل ما يفسر لنا شعوره الداخلى فأحلامه أبسط من أحلام الكبار ، فهو إلى ما قبل الرابعة من عمره يحلم عادة أحلاما مزعجة تدور مثلا حول الحيوانات المتوحشة وافتراسها ، ومن الرابعة إلى التاسعة أو العاشرة يحلم باللصوص وقطاع الطريق والأشباح والهياكل،وكل هذه الأشياء تؤدى معنى واحدا فى الحقيقة وإنما تختلف باختلاف البيئة، فقد وجد أن الطفل الذى يعيش فى منطقة نائية كأواسط إفريقيا يحلم بوحوش الغابات كما وجد أثناء الحروب أن الاطفال يحلمون بهجوم الأعداء وهكذا . وقد يؤدى هذا الخوف بالأطفال إلى التبول فى فراشهم ليلا . واذا سئل الطفل من يستطيع اكتساب ثقته عن شكل " البعبع " الذى أخافه فى الليل فإنه فى أحوال عدة يذكر أنه والده أو والدته. ومن المشاهد خصوصا فى بلادنا أنه كثيرا ما يساعد أحد الوالدين على تخويف الطفل من الآخر كأن تصور الأم لطفلها والده فى صورة مخيفة أو يصور الوالد الأم لطفله تصويرا مرعبا ؛ وكثيرا ما نرى ذلك فى أحوال الخلاف أو الشقاق بين الأبوين فإن كلا منهما يسعى أن ينفر الطفل من رفيقه الآخر على أثر غضبه منه أو رغبته فى الانتقام ، وقد ينتهز أحدهما أحلام الطفل المزعجة ليفهمه أنها حقيقية، والطفل لا يستطيع التمييز بين الحقيقة والخيال، والوالدان فى هذه الحالة يغفلان عن حقيقة ثابتة وهو أن المجنى عليه فى كل ذلك هو الطفل البرىء فان خوفه من أحد والديه ربى فى نفسه النفور. فيكبر مضطرب الأعصاب كثير المخاوف، فمهما نشأ من خلاف بين الأبوين فإن الطفل يجب أن يكون بعيدا عن أثر الخلاف مطمئنا إلى كليهما بحيث يستطيع أن يحدثهما

عن كل ما يخالج نفسه و يقص عليهما كل مخاوفه دون حذر أو خجل ، فان الخوف الذى يكتمه الطفل قد يكبر فى نفسه و يزيد فى أثره السيئ ما يكتنفه من شعور بالمذلة و يؤدى كل ذلك إلى اضطراب نفسانى فى مستقبل أيامه .

على أنه يجب الحذر من التطرف إلى ناحيـة أخرى ، وهى تدليل الطفل ، فإن بعض الآباء والأمهات يعطون لأولادهم من الحنان أكثر مما يحتاج إليه ، بل أكثر مما يجب ، إذا مرض أو أصيب بتوعك بسيط كبر الأمر على الوالدين واشتد قلقهم فيقاق الطفل بدوره وهكذا فالحنان أو القلق الزائد يؤدى أيضا إلى اضطراب ، و ينمو الطفل والثقة تنقصه و يصبح سهل الانفعال. وهناك نوع آخر من الآباء والأمهات يترددون بين القسوة والحنان فيخرج أولادهم حيارى مشوشين نافرين . لو استطاع إذن كل أب وكل أم وكل معلم أو معلمة أو مشتغل بشؤون الطفولة أن يشاهد أثر المعامله غير السديدة أو أثر سوء المعاملة فى الكبار لأدرك ضرر وسائل التربية العقيمة وضرورة الابتعاد عنها .

وقد لا يطول الوقت لظهور أثر أسلوب المعاملة أو التربية فى تطور الطفل ، بل قد يؤثر عليه تأثيرا مباشرا فى دور المراهقة وهو دور خطر ، وصفته سيدة من سيداتنا المشتغلات بالمسائل الاجتماعية وهى : "السيدة زاهيه مرزوق" بأنه دور انقلاب حاد لا فى الحالة الجسمية فقط بل فى الحالة النفسية والعقلية والاجتماعية ، وفى هذا الدور يبدأ الأطفال فى التطور و يأخذون تدريجيا مظاهر الكبار على أن تطورهم لا يسير على قاعدة واحدة ، فقد يكون سريعا ، وقد يكون بطيئا ، وليس للسن التى يبـدأ فيها ميعاد محدد ، فبعض الأطفال خصوصا فى مصر يبدأ المراهقة فى سن التاسعة والبعض يصل الى الرابعة عشرة بل السادسة عشرة ولما يبلغ المراهقة ولذلك يجب ألا تؤخذ السن معيارا للسلوك الطبيعى المنتظر من الطفـل ولكن يجب أن يلاحظ أن هناك علاقة وثيقة بين التطور فى الجسم والأعضاء والتطور فى العواطف فمنذ بدء المراهقة يدب التغيير فى كل الجسم ، وقد يكون سبب ذلك إفراز الغدد الصماء فيتغير الطول والحجم و ينتج من النمو السريع بعض مشاكل منهـا قبح المنظر وأن العضلات والعظام قد لا تنمو بالسرعة ذاتها ، فهناك عضلات تنمو أسرع من غيرها ، وقد تمر سنوات حتى يصل بعض الأولاد والبنات إلى درجة مقبولة من حسن التناسق ، ولكن فى فترة عدم التناسق يشعر المراهق بشىء من الحيرة وقد تتعرض صحته لبعض التأثر فتتعب بسرعة ولا يستطيع المثابرة على المذاكرة خصوصا فى الليل ، وهنا تعرض مسألة لا يلتفت إليها كثيرا وهى تقدير الألعـاب الرياضية التى تلزم فى سن المراهقة ، فقد يكون الإفراط فيها مضرا فى تلك الفترة. كذلك تتغير قوة المقاومة للأمراض ، و يقول أهل الطب إن فترة المراهقة تزيد المناعة ضد بعض الأمراض كالبرد العادى فتقل إصابة الأطفال بأمراض الزكام والبرد بعد العاشرة مع كثرة تعرضهم لها قبل هذه السن ، ولكن تقل المناعة لأمراض أخرى أشد خطورة كالسل ، وهنا تعرض

مسألة أخرى وهي ضرورة الاهتمام بوقاية الأطفال فى سن المراهقة من هذا الداء الوبيل، فكما أن للكهولة أمراضها كأمراض القلب أو اسرطان فإن الشباب مهدد بذلك المرض الفتاك الذى يسمونه بالموت الأبيض ولكن من الممكن طبعا الوقاية منه قبل وقوعه، ولهذا يجب أن تكون محاربته عنيفة وقوية لأن الأمل فى نجاحها كبير، ففى بعض البلاد خصوصا فى أمريكا يخصص أسبوع كل عام لفحص السل فحصا مبكرا يسمونه diagnosisweek early فى كل المدارس ، وهناك طريقة يعرفها الأطباء وهى حقن الأطفال بمادة تسمى توبركولين Tuberclin وهى مأخوذة من ميكروبات السل . فاذا ظهرت بقعة حمراء دل ذلك على أن الطفل أصيب بالداء و إن لم تظهر كان فى ذلك مايدل على حسن صحته . وهذه هى الطريقة الوحيدة على ما أعلم للتحقق من سلامة جسم الطفل من ميكروب السل فى هذه السن و يتم الشفاء بشىء من العناية اللازمة . وفى ظهور الميكروب مايفيد أيضا بالنسبة للكبار من أعضاء العائلة أو يدل على أن أحد أفرادها مصاب بالسل ، وقد يكون فى ذلك ما ينبه للعلاج فى الوقت المناسب. وإذا فحص الطفل ووجدت النتيجة إيجابية أمكن فحص رئتيه بالأشعة للتحقق من مدى سلامتها ، هذا الفحص من الأهمية بمكان و يجب أن تعنى به المدارس وأعتقد أن نظام الصحة المدرسية سيتوفر على هذه العناية .

هنا فى سن المراهقة يجب أن يستمر الاطمئنان والثقة لدى الطفل، بل يجب أن يشعر بأن شخصيته قد بدأت وأن له شيئا من الاستقلال والحرية فلا يكره على شىء لا يقتنع به فإن الإكراه لا يفيد فتيلا . هل نستطيع إكراه طفل على المذاكرة وهو لا يرغب فيها أو نستطيع منعه من التورط فى صعوبات خارج المنزل بالضرب أو بالشغب، كلا! وكل ماينتجه الإكراه هو النفور والميل للثورة، وأقوم سبيل لمعاملة المراهق أن يفهمه والده أو والدته كل مايتعلق بنفسه و بجسمه و بيئته حتى لا تصل إليه معلومات خاطئة من الغير ثم يعود على الاستقلال وعلى تحمل المسئولية مع إمكان الالتجاء الى الأب أو الأم فى أى وقت للاسترشاد برأى مجرب سنيم فإن الطفل فى دور المراهقة يحتاج إلى الاسترشاد ولكنه لا يذهب عادة إلى أبويه أو معلمه وهم أجدر الناس وأقدرهم على إرشاده . وقد أظهرت التجارب أن المراهقين كالكبار كثيرا ما يكرهون النصيحة التى تدفعهم على ما يجب عمله ومالا يجب، و إنهم يفضلون التحدث مع شخص يثقون برجاحة رأيه ليبين لهم كل شىء أو يوضح لهم كما يقول الانجليز الصورة the whole picture ومتى عرفوا ذلك استطاعوا حل مسائلهم بأنفسهم و يصلون غالبا إلى حلول مقبولة . وقد تطرأ فى المراهقة صعوبات يتورط فيها الأطفال و يرجع ذلك غالبا إلى عدم تعويدهم أثناء الصغر على الاعتماد على النفس والمسئولية فلم يحضروا لدور المراهقة بتعود الاستقلال عاما فعاما فإذا أصبحوا وزمامهم فى أيديهم لدرجة ماوقفوا حيارى أمام هذا الاستقلال ولا سبيل لإنقاذهم من هذه الحيرة إلا اذا وثقوا فى والديهم أو اطمأنوا إليهم

وصارحوهم بصعوباتهم . ومن المهم أن يعطى الأب أو الأم فرصة لطفلهما أن يصارح بما لديه من صعوبات لأنه قبل كل شيء فرد فى المجتمع وكما أن للنشاط المدرسى أهميته فكذلك للنشاط الاجتماعى فإذا لم يظهر اهتماما بالمجتمع الذى حوله يتفق مع سنه فهذا فشل لا يقل عن فشله فى الحساب أو الكيمياء بل بالعكس يتوقف النجاح فى سن المراهقة إلى حد كبير على استعداد الفرد للانسجام مع المجتمع socialisation فليساعد الآباء والأمهات على الوصول إلى هذا الانسجام بالمناقشة الودية والاستمرار فى اكتساب الثقة فاذا لم ينجح الأب أو الأم فى تذليل صعوبة طرأت على طفلهما أو صلاح موقف من المواقف ، ففى هذا ما يدل على أن لدى الطفل أو الاب أو الأم عقدة نفسانية يحتاج إلى معونة خارجية تساعد على تسوية الموقف . على أن يترك جانبا استعمال القوة فلم تكن القوة يوما من الأيام وسيلة لاكتساب الاحترام أو للتقويم الصحيح وإنما يحترم الأولاد آباءهم وأمهاتهم بتنمية هذه العواطف لديهم لا بإكراههم عليها أو بإدخالها فى نفوسهم إدخالا صناعيا .

محمد عبد المنعم رياض

الحياة الاجتماعية فى مصر بعد ربع قرن

"يسرنا أن نذكر أن الكلمة التى سبق أن نشرناها فى العدد الماضى من هذه المجلة بعنوان " الحياة الاجتماعية فى مصر بعد ربع قرن " لحضرة صاحب العزة الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك قد أنتجت أثرها فأنشئ فعلا مكتب للأبحاث المستقبلة يتوفر على دراسة المشكلات الاجتماعية على أساس علمى قائم على الإحصاءات الصحيحة، وكونت لهذا المكتب لجنة تتولى الإشراف على عمله برياسة حضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا ، وسيكون المكتب وجها من وجوه نشاط الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية التى أقرت إنشاءه فى جمعيتها العمومية السنوية فى انعقادها الأخير ، وستقوم بالعمل فى المكتب هيئة فنية يرأسها الدكتور محمد رياض اسنوانى الإخصائى فى الإحصاء .

وقد عقدت لجنة المكتب فعلا ، وبحثت نظام العمل التى ستسير عليه فى أبحاثها ، وكان أول قراراتها تشكيل لجنة فرعية لبحث موضوع الأجور الزراعية وهو من أهم المسائل التى تهم الحياة الريفية فى مصر ، ويرأس هذه اللجنة سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك نائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى ومن أعضائها حضرة السيدة الجليلة حرم الدكتور حافظ عفيفى باشا وهكذا يمكننا أن نهنئ حضرة واضع البحث المنشور بتحقيق فكرته بأسرع مما كان ينتظر".

المحرر